عبد الغني خماس

ابو تمام

مكتبة النهضة - بغداد

ابو تمام
شاعرا ومجددا

الطبعة الاولى ١٩٨٨

ابو تمام

شاعرا ومجددا

عبد الغني خماس

مكتبة النهضة ـ بغداد

توطئة

كانت الخلافة الاسلاميـة تعيش ابهى عصورهـا في القرن الثـاني للهجرة القرن الذي ولد فيه شاعرنا فلقد اطلق على هذا العصر من عصور الخلافة العباسية «العصر الذهبي»

كان ابو تمام معاصرا لخلافة المامون بن الرشيد الذي عرف بحبه للاداب والعلوم وخاصة الفلسفة التي كان ينحاز الى اصحابها ويميل الى مسائلها بل كان نفسه احد اركانها، فقد كان يميل الى المعتزلة الذين كانوا وسطا مابين الفلاسفة العقلانيين والفقهاء المتكلمين وهو الذي اتم تشييد مكتبة «دار الحكمة» التي كانت تعد من كبريـات المكتبات في العالم انذاك ولقد افرد فيها جناحا خاصا للترجمة وكثيرا ما حدثتنا كتب التاريخ عن تشجيعه لفن الترجمة والمترجمين.

وفي زمان هذا الخليفة كان الخلاف مابين «اهل السنة» الذين كانوا ياخذون الاحكام الفقهية كما وردت في القران الكريم، والسنة النبوية الشريفة مبعدين ظلال العقل واحكامه على كل مـايتعلق بالدين من قريب او بعيد ويصدرون احكامهم معتمـدين في ذلك على الكتـاب الكريم والسنة النبوية الشريفة على عكس ماكان عليه المعتزلة الذين كانوا لايتحرجون من استعمال العقل وتحكيمه في كثير من الاحكام

الدينية ليدفعوا بعملهم هذا بعض الشبهات التي فرضتها القضايا الفلسفية في مجال الاديان السماوية وخاصة الدين الاسلامي الحنيف بعد ان نقلت فلسفة الاغريق وفلسفات الامم الاخرى الى اللسان العربي واصبحت في متناول المثقف العربي.

ونتيجة لهذا الاختلاف في المنهج والهدف لكل من هاتين المدرستين الفكريتين فقد قامت ضجة كبيرة وخلاف واسع مابينهما في امور كثيرة اهمها مسالة «خلق القران» فقد قال اهل السنة «ان كلام الله هو صفة من صفاته ولما كانت صفات الله سبحانه وتعالى هي نفس ذاته ولما كان القران هو كلام الله فهو ازلي كازلية الله سبحانه وتعالى».

اما المعتزلة فكانوا يعتقدون ان صفات الله سبحانه وتعالى هي ليست جزءا من ذاته بل هي حادثة اذن فهي لم تكن ازلية مع ازلية الذات بل وجدت فيما بعد فهي اذن في نظرهم مخلوقة ولما كان القران الكريم هو قول الله اي صفة من صفاته اذن فهو ليس ازليا بل مخلوق كباقي صفاته.

وقد احتدم النقاش في هذه المسالة ومال الخليفة المامون الى راي المعتزلة وكان حربا على اهل السنة فاضطهدوا ايما اضطهاد وبقى هذا الاضطهاد والتعسف يلاحقهم فترة طويلة شملت عهدي المامون والمعتصم ومهما يكن من شيء فقد قام المعتزلة بدور عظيم في حماية العقائد الاسلامية من هجمات الفلاسفة ضد العقائد السماوية لانهم استعملوا في الرد عليها نفس الاسلوب العقلاني التي كانت تستعمله الفلسفة في مهاجمة المسائل الدينية والروحية ولو ان اهل السنة اتهموهم بعكس ذلك وقد انطلق المعتزلة في منهجهم هذا متاثرين بتوجيهات القران الكريم وتعظيمه للعقل الانساني الذي فضل به الانسان على سائر مخلوقات الله مستدلين بالايات الكريمات التي تخاطب العقل وتستحثه على النظر والتفكر والتامل قال تعالى «قل انظروا ما في السموات والارض» وقال تعالى «انظر الى الابل كيف خلقت» وغيرها من الايات التي ارادت من خلال خطابها للعقل ان تستفزه ليكون متحفزا ومستقرئا لا مترهلا خاملا يعيش عالة على

ماتقدمه الاديان السماوية دونما تفكير او تامل لهذا فقد اعتبر الكثيرون ممن أرخوا للفكر الاسلامي ان المعتزلة كانوا من اكثر الفرق الاسلامية دفاعا عن مبادىء الاسلام امام زحف الفلسفة الاغريقية وانتشارها في المجتمع العربي الاسلامي انذاك كان هذا الاتجاه الجديد التي خلقته الظروف الثقافية الجديدة ذا تاثير واضح على المفكرين والادباء فبدا الفكر الفلسفي العربي يتبلور ويتخذ اتجاها خاصا به في معزل عن الفكر الاغريقي وان كان قد تاثر به واكبر شاهد على ذلك ظهور الفيلسوف العربي الكندي الذي كان معاصرا لشاعرنا وغيره من المفكرين الذين بداوا يشعرون بوجوب استقلالية الفكر العربي وضرورة انفصاله عن تيارات الفكر الانساني التي كانت معروفة انذاك مضافا الى ماتقدم فقد عرفت الحياة العربية استقرارا وازدهارا بعد ان قضى على رؤوس الفتنة ممن كانوا يعملون ضد الخلافة العربية ليهيئوا الاجواء لنقل السلطة السياسية من العرب الى غيرهم من الشعوب التي انضوت تحت لواء الاسلام.
واخطر تلك الحركات حركة ابي مسلم الخراساني وحركة البرامكة التي قضى عليها الرشيد قضاء مبرما بعد ان احس بخطرها على كيان السلطة العربية.

لقد تنفس الناس الصعداء؟ وان لم تخل الساحة تماما من اعداء كانوا يتربصون بالخلافة والامة ايما تربص ولكن هؤلاء لم يكونوا ـ انذاك ـ ليمثلوا خطرا امام قوة الخلافة وتماسك الامة.
فقد بقي الامر للعرب، يوم كانوا معتمدين على انفسهم وبقيت للخلافة نضارتها وقوتها، في عصور المهدي والرشيد والمامون والمعتصم، بيد ان بوادر الضعف بدت تلوح في الافق عندما بدا الخلفاء يتركون امور الدولة والرعية الى غيرهم من الوزراء والقادة من غير العرب، واول من سن هذه السنة الخطرة، هو المعتصم، عندما استعان باخواله الاتراك فالف منهم جيشا لحمايته. وتبعه الكثيرون من بعده، فكانت من الاسباب التي نقلت السلطة من العرب الى غيرهم من فرس واتراك.

اذن نخلص من اقوالنا السابقة الى ان ابا تمام عاش في فترة كانت مزدهرة فكريا ومستقرة سياسيا، فكانت ولادته في نهاية القرن الثاني الهجري، اذ بلغت الدولة العربية اوج عظمتها واستقرارها وازدهارها الاقتصادي وكان لهذا اثره البارز في تفتح عبقرية ابي تمام، ودافعا نحو تجديد الصورة الشعرية في شعره كما سنرى فيما بعد لقد كان شاعرنا صدىً لكل الاحداث التي عاشها، فقد صورها بكل امانة واخلاص، فاذا ما قلبنا صفحات ديوانه ستطالعنا اشعاره بكل القيم والمثل والاخلاق، التي شاعت في وقته، من غنى فاحش وفقر مدقع وتقى وتعفف الى تهتك واسفاف.

واحب ان اشير هنا ان اية حضارة وخاصة اذا كانت وافدة فانها الى جانب ماتحمله في احشائها من بذور التقدم والتحضر والاخلاق السامية فهي تبشر كذلك بقيم هزيلة ومعارف هي بعيدة كل البعد عن الاصالة والنضوج.

فويل للمجتمعات التي تشبثت بالقشور وتركت اللباب وتعسا للشعوب التي ظنت ان الحضارة هي اشباع الغرائز وامتاع الجسد والانغماس في الترف والمجون لا.. فان امثال تلك الامم سرعان ما تتهاوى امام اعدائها كما تتهاوى اوراق الخريف لهذا قال رسولنا الكريم ومعلمنا العظيم (ص) «اخشو شنوا، فان الترف يزيل النِعم» نعم ان الانغماس في الدعة والترف والنعيم يقتل الرجولة ويميت فضائل النفس البشرية.

لقد قادني الاستطراد الى ما انا فيه، انك لو نظرت الى ديوان ابي تمام للاحت لك مظاهر القوة وعظمة السلطة من خلال الاشعار التي وردت في ديوانه ولبدت لك بعد الفينة والفينة بعض مظاهر تلك الادواء التي ذكرناها سابقا والتي دخلت مجتمعنا من خلال تدافع الحضارات الاخرى الوافدة على حضارتنا فالغزل الغلماني الشاذ، ومجالس الشراب والتهتك والمبالغة في المديح وغيرها من سلبيات الحياة التي ظهرت هي الاخرى في شعر صاحبنا.

ولاعيب في ذلك على الشاعر لان الفنان انما هو راصد امين يسجل اية حركة اجتماعية كيفما كان اتجاهها سلبيا كان او ايجابيا ولان الشاعر

بالذات هو صدى لعصره فلا ضير ان تظهر في حنايا اشعاره صور الحياة التي كان يمور بها مجتمعه....

حياته

هو حبيب بن اوس الطائي

لقد تضاربت الاراء في اخبار ابي تمام وخاصة في حياته الاولى والسبب كما يبدو انه كان فقيرا معدما من عائلة لم يكن لهـا شان يذكر.

فالمورخون يختلفون في كل مايتصل به يختلفون في اصله وسنة ميلاده والمكان الذي ولد فيه وحتى في نشأته والمكان الذي توفاه الله به.

والراي الغالب انه ولد في قرية جاسم وهي قريـة تقع عـلى الطريق الموصلة مابين دمشق وبحيرة طبرية اما سنة ولادتـه فهي تتراوح حسب الروايات مابين ١٧٢ ـ ١٩٢ هـ وفي رواية تنسب اليه أي الى حبيب بن اوس الطائي يدعي فيها انه ولد سنة ١٩٠هـ

اما نسبه فقد قيل فيه ما قيل فقد قال قوم ان اباه كان نصرانيا يدعي: تدوس فحرفه ابو تمام الى اوس وقال اخرون انه يوناني وقال فريق ثالث انه نبطي ولكن الكثرة الغالبة من الرواة اتفقـوا على اصـالة عروبته وطائيته.. نسبة الى قبيلة طيء المشهورة. قال مفتخرا بقبيلته طيء:

لمـا رايـت الامـر امـرا جـدا	ولم اجـد مـن القيـام بـدا
ليسـت جـلد نمر مـعـتـدا	وجـلد ضـرغـام يـقـد قدا
جـمعـت جمـع العـرب الاشـدا	جـمـعـا يـلد الظالم الالدا
يـهـد اركـان الجبـال هـدا	كـان تـمـيم لابـينـا عـبـدا
وطيء قـد البستـنـا بـردا	حتـى فخـرت وهـزمـت العبـدا

ففي هذه الابيات يفخر بقبيلته طيء التي هيات له كل اسباب القوة فهو عند الجد وساعة النزال والمقارعة ينقلب الى نمر مفترس وضرغام اذا ما انقض على اعدائه حولهم الى اشلاء متناثرة فقد جمع من

العرب الاشداء جمعا يستطيع بهم ان يهد الجبال ويجعل من القبائل الاخرى التي ناصبت قبيلته طيء الخصومة خائفة مرتعدة الاوصال كل ذلك بفضل انتمائه الى هذه القبيلة التي خلعت عليه ثوب الفخار فجعلت منه سيدا على الاخرين.

شب صاحبنا في دمشق وكما ذكرنا سابقا كان فقير الحال لهذا فقد امتهن الحياكة في مقتبل عمره ولكن الى جانب هذا فقد كان ميالا للمعرفة محبا للدرس لهذا نراه يتحين الفرص للتزود بما كان يرغب فيه فكان يتردد على حلقات الدرس والعلم ليرتشف منها مايبرد ظمأه الى المعرفة ثم انتقل منها الى حمص وبها التقى بالشاعرين عتبة بن عبد الكريم الطائي وديك الجن، وافاد منهما الكثير في صقل مواهبه الشعرية.

وقاده طموحه وحبه للمعرفة ان يتوجه نحو مصر وان يقيم بالقسطاط فاتخذ السقاية مهنتة يقتات منها وكان الى جانب ذلك يتردد على مسجد الفسطاط «الجامع الكبير» ليرتوي من حلقات الدرس التي كان يسعي اليها سعي الحبيب الى حبيبته، فاستفاد من مكوثه الشيء الكثير وحاول فيها ان يمدح صاحب الخراج والشرطة وكان يمانيا اسمه عياش بن تهيفة وقد خاطبه باحدى قصائده قائلا:

وانت بمصر غايتي وقرابتي   بها وبنو الاباء منها بنو ابي

ولكن لم ينل ماكان يتمناه من مال وسلطة، لذا سرعان ما انقلب عليه يهجوه، ويسخر منه كما فعل اخ له من بعد المتنبي مع كافور الاخشيدي صاحب مصر ايام المتنبي رجع الى دمشق عام ٢١٤ وقد حاول ان يتصل بالخليفة المامون عند زيارته لدمشق ولكنه لم ينجح في محاولته هذه فاتجه نحو الموصل ثم سار الى ارمينيا فاستطاع هناك ان يتصل بواليها خالد بن يزيد الذي اشتهر بحروبه مع الروم وراح يتجول في انحاء العالم الاسلامي معتبرا كل بلد ينزله انما هو بلده عبر عن ذلك بقوله:

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا
بالرقمتين، وبالفسطاط اخوالي

وما اظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تشافه بي اقصى خراسان

يقول: تركت اهلي بالشام وبغداد هي المدينة التي اصبوا اليها ويخفق لها قلبي حنينا وشوقا وانا الان مقيم في الجزيرة الفراقية واخوالي في مصر ولكن البعاد لم يكتف بهذا حتى يدفع بي ويوصلني الى اقصى خراسان.

ولكن سرعان ما يبتسم له الحظ، وتضحك له الدنيا بعد عبوس فبعد ان ينتقل المامون الى جوار ربه سنة ٢١٨ تسنح الفرصة لصاحبنا الاتصال بالمعتصم وبحاشيته وخاصة محمد بن يوسف القائد الذي قضى على الحركة الحزّمية، وهزم قائدها بابك الخرمي الذي طالما عبث وقتل وافسد.

ولكن شهوة السفر التي قد سيطرت عليه وهيمنت على حواسه تتحرك ثانية فينطلق نحو خراسان فيستقبله اميرها بعد ان طار ذكره وعمت شهرته الافاق وهناك يستقبله والي خراسان عبدان بن طاهر استقبالا حارا يليق بمكانته ويجزل له العطاء ومن هناك ينطلق ابو تمام ليمدح الوالي والعمال والقادة وسراة القوم فتصله هباتهم وعطاياهم فيرجع بمال وفير ثم يعرج بعدها على همذان فينزل ضيفا على ابي الوفاء بن سلمة، الذي اكرم وفادته وعندما يهم بالمسير يرى نفسه محاطا بالثلوج الامر الذي اعاقه عن السفر فمكث عند مضيفه عدة شهور حتى انحسرت الثلوج فاستغل شاعرنا مكوثه هذه الشهور في همذان فانكب على مكتبة ابي الوفاء العامرة ليؤلف مختاراته التي بلغت خمسة اجزاء والتي لم يصلنا منها الا جزء واحد هو «ديوان الحماسة» المتداول الان والذي يعكس ذوق حبيب بن اوس في اختياراته الشعرية ومدى اطلاعه على عيون الشعر العربي.

ثم يغادر همذان الى اصفهان ومنها الى سامراء وفيها يولى على بريد الموصل ولكن المنية لم تمهله كي يتمتع بهذا المنصب الجديد فقد اغتالته ولما يتجاوز الاربعين الا بقليل وهكذا كانت وفاة ابي تمام بين سنتي ٢٣١ ـ ٢٣٢هـ.

عنوان شخصيته :

يروى عنه انه كان حاد الذهن فطنا لسنا بز جماعة الشعراء الذين عاصروه وكان يمتاز الى جانب ذلك بحضور البديهة وسرعة الاجابة يستدلون على ذلك انه كان يمتدح احمد بن المعتصم بقصيده حتى وصل الى قوله:

اقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم احنف في ذكاء اياس

اراد الفيلسوف الكندي وكان حاضرا ـ احراجه فقال: الامير فوق ماوصفت، فما كان منه الا ان اطرق قليلا ثم تابع انشاده مرتجلا هذين البيتين:

لاتنكروا ظربي له من دونه
مثلا شرودا في الندى والياس
فالله قد ضرب الاقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

مشيرا بذلك الى قوله تعالى «الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...»

يقول: لا تستغربوا اذا ماشبهته بما هو اقل منه لان العادة قد جرت ان تكون الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به اقوى في المشبه به.

ولكنه يعتذر عن ذلك بان الله سبحانه وتعالى شبه نوره بنور هو اقل من نوره وليس ذلك مايعيب المشبه.

وقد روى عن الكندي الفيلسوف قوله في ابي تمام «هذا رجل يموت قبل حينه لانه حمل كيانه بالفكر» يريد انه كان يكد الذهن، ويرهق نفسه لكي يحتال على المعاني البديعة التي صاغها في قوالب فكرية جديدة.

والى جانب ماتقدم كان صاحبنا صبورا يتحمل المشاق مسرفا على نفسه يرغب في التنقل فقد كانت حياته سلسلة متصلة من الاسفار لايكاد يحط رحاله حتى يهم الى سفر جديد وهكذا دواليك يقول:

عامي وعام العيس بين وديقة
مسجورة وتنوفة صيخود

حتـى اغـادر كـل يـوم بـالفـلا
للطـير عيـدا مـن بنـات الـعيـد

اني كثير التنقل مرة تراني في ارض مخضرة كثيرة الميـاه واخرى بوديان لاماء فيها شديدة الحرارة وكثيرا ما كانت تهلك الابل لكثرة ما كانت تتحمله من مشاق في اسفاري الطويلة فاتركها طعاما لسبـاع الطير وكان يحمل بين جنبيه نفسا كبيرة عفيفة لاترضى بالذل فكان في مديحه لايتهالك طمعا في المال كما كان يفعل بـاقي الشعراء، فـاذا ماراى من ممدوحة ازورارا عنه ابتعد عن مدحه واحيانا انتقل الى هجائه.

وقد اقبل صاحبنا على الدنيا يعبُّ من لذائذها عبا فاندفع نحو اللهو والشراب، واطايب الحياة لايبخل بمال على لهوه واويقات انسه.

وكان سهلا لا يتشدد في امور الدين «لا يكلف الله نفسا الا وسعها» لذا نفذ اليه حساده واعداؤه من هذه الثغرة فاتهموه بشتى الاتهامات حتى ان بعظهم رماه بالمجون والخلاعة. وهكذا كانت حياة صاحبنا خليطاً من الجد والهزل والوقـار والمجون والفقر والغنى اما السفر فقد ملك عليه شغاف قلبه فقد قضى شطرا من حياته ينتقل مابين البلدان حتى وافاه الاجل وهو في اوج الرجولة وقمة الشاعرية.

شعره:

ان المـواهب والقدرات الفنيـة ومنها الشعـر هي قبل كـل شيء استعداد فطري يولد مع الفنان والشاعر. حقا ان كثرة التجارب التي يمر بها الانسان خلال سني حياته وما يتزود فيه من خبرات ثقافية لها اثرها الكبـير في تفجير القـابليات الفنيـة ولكن يبقى للاستعدادات الفطرية المكانة الاولى في صياغة الفنان وتوجيهه الوجة الفنية التي تاصلت فيه جذورها وراحت تجري في عروقه مجرى الدم لقد قيل ان كل انسان الا ويحمل في تكوينه النفسي والفكري نـوعا من انـواع العبقرية والابداع واذا ما اكتشف الانسان هذه القوى ووضع يده

عليها ونماها وصقلها اصبح من العباقرة ولهذا قال سبحانه وتعالى «وفي انفسكم افلا تشعرون؟» وقال افلاطون «اعرف نفسك» وللامام علي «كرم الله وجهه» في هذا المعنى البيتان التاليان:

دوؤاك فيك وما تعلم وداؤك فيك وما تشعر
تظن بنفسك جرما صغيرا وفيك انطوى العالم الاكبر

مما تقدم نفهم ان اسباب النبوغ والعبقرية تولد مع الانسان ولكن ثمة ظروف خارجية اذا ما توفرت وتفاعلت مع تلك القوى برزت واضحة وانفجرت كما تتفجر المياه حتى اذا ما صادفت ارضا هشة استطاعت ان تنفذ من خلالها فقد حاول الالاف بعد دراسة وجهد ومعاناة ان يكونوا شعراء او رسامين او ممثلين ولكن جهودهم ومعاناتهم ذهبت ادراج الرياح، لانهم كانوا يفتقدون الخميرة التي تؤهلهم الى ماكانوا يصبون اليه. وكم من معدم ولد في عائلة لايكاد يشعر بوجودها احد فقيرة لاتملك من دنياها الا ما تسد به الرمق، ومع هذا فقد تسلق بعض افرادها سلم المجد لانه كان يحمل القوى الكامنة التي تؤهله لتسنم ذرى المجد.

هذا الجاحظ الذي كان يبيع السمك في ميناء البصرة حتى اذا جن الظلام هرع الى حوانيت الوراقين ليلتهم مافي تلك الحوانيت من كتب» لم يكن يفعل ذلك لولم تكن هناك قوى داخلية تدفعه الى ذلك دفعا انها العبقرية الكامنة في اعماقه تبقى فاغرة فاها لتلتقط الحكمة والمعرفة والثقافة كما يلتقط الطير حبات الذرة او الشعير وشاعرنا حبيب بن اوس الطائي الذي بدا حياته حائكا في دمشق وسقاء في الجامع الكبير بمدينة الفسطاط هذا الذي كان يتحرك في داخله شيطان الشعر، والذي كان يلح عليه ليكون شاعرا... اقول ان مثل هذا لابد ان يكون شاعرا مهما حالت بينه وبين ما قدر له من ظروف وعقبات فالذي هيأته الطبيعة ليكون زعيما لابد ان يتسلق ذرى المجد ويمسك بزمام الزعامة مهما صادفته من عقبات والذي قدر له ان يكون شاعرا لابد ان يصل الى ماقدر اليه وهكذا دواليك وصاحبنا دون شك كان ممن خلقوا ليكونوا شعراء. لا اريد الان ان اتكلم عن الجديد في شعر

الطائي لانني قد افردت له بحثا خاصا ساتناول من خلاله الصور الجديدة التي استحدثها شاعرنا اما الان فاريد ان اتكلم عنه وعن الاغراض التي تناولها لقد تناول ابو تمام كل الاغراض التي كانت معروفة في عصره فقد كان يمدح ويهجو ويصف ويتغزل ويرثى.. الخ كما كان يفعل اقرانه من الشعراء الا انه عندما كان يمدح او يرثي يبلغ شانا لايجاريه فيه احد وليس معنى هذا ان شاعرنا كان يقصر في باقي الاغراض بل ان ما اريد قوله ان مواهبه الشعرية كانت تسمو وتحلق في اجواء شاعرية عليا عندما كان يمتدح او يرثي.

وسبب ذلك حسب ما ارى ان شاعرنا كان معدما قيل ماقيل عن نسبه وهوية والده وامتهانه الحياكة في صباه والسقاية عندما عرج الى مصر.

اقول ان مثل هذا الرجل الذي لم يمتلك في دنياه متكأ يتكىء عليه غير الشعر في تغيير واقعه المتردي ماديا واجتماعيا ولم ير غيره وسيلة يستطيع بها ان يتخلص من فقره اذن فليتخذ الشعر وسيلة الى مايصبو اليه.

والمديح هو النوع السحري الذي يستطيع به ان يستميل القلوب ويرققها ويقربها اليه فاستجمع كل ما يمتلكه من عبقرية وابداع ليفرغها في قوالب المديح وفعلا استطاع بمديحه ان يصل الى الغنى والجاه اذ أصبح شاعر الخليفة المعتصم الذي راح يجزل اليه العطاء فاغتنى بعد فقر واصبح ذا جاه بعد ان كان مغمورا، وموظفا مرموقا في دوائر البريد في الموصل بعد مهنة الحياكة والسقاية.

بالشعر وحدة وخاصة المديح استطاع ان يرتقي سلم المجد وان يستقبل اينما ذهب وحل بالحفاوة والترحاب. شعر صاحبنا بهذا فانكب على المديح يرضعه من فكره اصفى مايجود به الفكر ويهبه من نفسه ارقى ماتهبه النفس من دقة في المعنى وصفاء في الذهن وعذوبة في النضم وجمال في الصورة.

ومثله فعل المتنبي من بعده عندما كان يكيل المدائح جزافا حتى لمن كان لايستحقها كصنيعه مع كافور الاخشيدي الذي خلع عليه من

الالقاب ما كان يحلم بها السادة لشرفاء كل ذلك ليصل الى الحكومة والولاية.
اما ابداعه في الرثاء فاسبابه واضحة كذلك لان الرثاء هو ذكر فضائل المتوفى وعرض مناقبه وفضائله، وهو مدح خاص بالموتى، وقد يقول قائل ماذا كان يرتجي صاحبنا من الموتى وقد انقطعوا عن الحياة فلم يعودوا يضرون او ينفعون؟

اقول لهولاء:

انه كان يرجوا التقرب الى ذويهم وخاصة اذا كانوا من ذوي السلطة والشان فان مديح هولاء الموتى سيترك اثرا طيبا عند اقربائهم واهليهم وهذا بدوره سيقربه - اي الشاعر - الى هؤلاء الاهل والاقرباء وبهذه القرابة او التقرب يستطيع ان يحقق احلامه وان يقفز الى المكانة التي كان قد هياها لنفسه لهذا فقد كان يشحذ الهمم ويعصر الفكر ليستخرج اصفى مايجودا به ليكون تاثيره كبيرا وتاثر السامعين بالشاعر عظيما.

واليك نموذجا من رثائه. قال يرثى القائد ابن حميد الطوسي:

الا فليجل الخطب وليفدح الامر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الامال بعد محمد
واصبح في شغل عن السفر السفر
فما كان الا مال من قل ماله
وذخرا لمن امسى وليس له ذخر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
فاثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت اخمصك الحشر

تـردى ثيـاب المـوت حمـرا فمـا دجـى
لـهـا الليـل الا وهـي مـن سنـدس خضر
مضى طـاهـر الاثـواب لـم تبـق روضـة
غـداة ثـوى الا اشتـهـت انـهـا قبـر

هذه بعض ابيات من قصيدة تعتبر من عيون المراثى في الشعر العربي لان الشاعر قد استحدث صورا لم تسمع من قبـل كما نـرى ذلك واضحا في الابيات الثلاثة الاخيرة وسنحاول ان نـظهر بعض تلك الصور الرائعة التي وردت اثناء القصيدة وذلك من خلال شرحنـا لهذه الابيات.

شرح الابيات:

اية مصيبة هذه التي حلت بموت القائد الطوسي؟ انه مصاب جلل بكته كل عين.

فقد تلاشت امال الناس واحلامهم في الغنى والامان فمن ذا الذي سيوفرهما لهم بعده حتى اصيب الناس بالوجوم، واجل سفره من كان على اهبة السفر فقد كان مالا لمن لايمتلك المال، وعونا لكل من لامعين له.

كان كلما نازل الفرق ابكاها وقهرها حتى راحت تذرف الدماء بدل الدموع اما هو فتزداد عقول الناس تعلقا به لما يسمعونـه عنه من شجاعة وحزم واقدام.

انه لم يمت نتيجة للجبن بل ظل يضرب ويطاعن حتى نزلت الكارثة فافقدته الحياة فموته انما هو نصر لشجاعته ورجولته.

وانه لم يفارق الحياة الا بعد ان تثلم سيفه لكثرة ماضرب بـه من الرؤوس بعـدهـا تنـاوشتـه الرمـاح فـاردينـه قتيـلا لان الة الحرب ـ السيف ـ قد تعطلت في يده.

بقى ثابتا في مواضع الموت لايحيد عنها عالما انه سيموت وسيحشر مع الصديقين والشهداء.

بينما كان الدم يغطى جسمه حتى كانه قميص ارتداه ولكن ما ان حل

ظلام الليل حتى كان مرتديا قميصا من قمصان الجنة الخضر، مضى شهيدا مستبسلا في الدفاع عن عقيدته حتى ان الرياض والجنائن قد اشتهين ان يكن مأوى له ولحدا ينزل فيه جسمه الطاهر ومن مدائحه قال يمدح الواثق ويهنئه بالخلافة ويرثى المعتصم:

ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام
ياحُفرة «المعصوم» تريك مودع ماء الحياة ، وقاتل الاعدام
ان الصفائح منك قد نضدت على ملقى عظام ، لو علمت عظام
فتق المدامع ان لحدك حله سكنُ الزمان وممسك الايام
هدمت صروف الموت ارفع حائط ضربت دعائمه على الاسلام

الشرح:
هذا القسم الاول يرثى به المعتصم ويستهل القصيدة احسن استهلال متسائلا مالهذه الدموع تسيل دونما انقطاع؟ فكأنما الاجفان قد فقدت الهجوع والمنام.
ثم يخاطب الحفرة التي استقر بها جثمان الفقيد قائلا:
ان الجسم الذي اودعوه فيك كان ينبوعا للحياة وذلك كناية عن كرمه واحسانه ومزيلا للعدم والفقر.
لو علمت ان العظام التي تكدست فوقها الصفائح كم كانت عظيمة وكم لاقت من امور عظام واحداث جسام ان الذي جعل المدامع تجري، ان الذي حل لحدك كان الزمان بكامله سكنا له وكان يتصرف بالايام كيفما يشاء.
وبموته انهد اعظم بناء واضخم سياج كان يحتمي به المسلمون.
ثم ينتقل بعد ذلك الى مدح الواثق فيقول:

انا رحلنا واثقين بواثق بالله شمس ضحى، وبدر تمام
لله اي حياة انبعثت لنا يوم الخميس، وبعد اي حمام
اودي بخير امام اضطربت له شعب الرجال وقام خير امام
لما دعوتهم لاخذ عهودهم طار السرور بمعرق وشام
فكان هذا قادم من غيبة وكان ذاك مبشر بغلام

لو يقـدرون مشوا عـلى وجناتهم وعيـونهم، فضلا عن الاقـدام
قسمت، امـير المـؤمنـين قلوبهم بـين المحبـة فيـك والاعـظام
هي بيعة الرضوان يشرع وسطها باب السلامة فادخلوا بسلام
ملك يـرى الدنيا بـايسر لحظة ويـرى التقى رحما من الارحـام
يا ابن الكواكب من ائمـة هاشم والرجـح والأحسابُ والاحـلام
اهـدى اليك الشعـر كل مفهـه خطل، وسـدد فيـك كـل عيـام

شرح الابيات:

ان اصبنا الغاية ونلنا الهدف يوم ذهبنا ـ وكلنا ثقة ـ بالواثق بالله، فهو كالشمس التي تطارد الظلام فتاتى على كل ظلم وقهر، وكضياء البدر يقضى على كل خوف وقلق، إني لاعجب كيف وهبنا الله حياة جديدة في يوم الخميس ويظهر ان الواثق بويع بالخلافة في هذا اليوم فانه يوم اعز بعد وفاة ومصاب جلل.

فقد رحل عنا خير خليفة ـ ولكن الله عوضنا عنه بخير خليفة فكان خير خلف لخير سلف.

عنـدما نـاديتهم ـ اي المسلمين ـ لاخـذ البيعة، عم الفـرح وشاع السرور في جميع انحاء العالم الاسلامي فعم البشر من كان يسكن العراق، وطفح السرور على وجوه من كانوا يقطنون الشام.

حتى ان فرحهم كان يشبه فرح من كان غائبا عن اهله وعاد اليهم او من بشر بمولود.

فتوجهوا نحـو عاصمـة الخلافـة والشوق يستحثهم حتى انهم لو استطاعوا ان يسيروا على وجناتم ووجوههم بدل الاقدام لفعلوا.

وكـان يـدفعهم الى ذلك حبهم لك واعـظامهم لشخصـك هي بيعـة لايشوبها قهر او قوة، بل ان الناس انـدفعوا راغبـين راضين اذن فليدخل الكل في سلام وامن ان الواثق بالله امره سهل، فاحكـامه ونظرته للحياة غير معقـدة وهو تقي ورع، حتى راح يـرى الايمان والتقوى ومخافة الله قريبا لابد ان يصله كما يجب ان لاتقطع صلة الارحام.

يا ابن الفضلاء من بني هاشم الذين كان يهتدي بارائهم وعقـولهم النيرة كما يهتدي بضياء الكواكب في ليل مدلج لقد راح يقول فيك

الشعر ويمتدحك كل عيي، غبي، ثقيل الظل، وحتى هولاء اجادوا القول فيك لان شخصك يوحي لمثل هولاء بالعضامة والدراية.

قدمنا لك عزيزي القارىء نموذجين للشاعر ابي تمام في المديح والرثاء واظنك تشاركنا الراي ان شاعرنا كان ذا نفس في هذين الغرضين من انواع الشعر.

ولكن ليس معنى هذا انه ترك باق الاغراض لا فقد ولج ابوابها وقال فيها ما قال ولكن كان في هذه الاغراض شاعرا مقلدا ومرددا معاني الاولين وصورهم الشعرية.. دون ان يقترب من ساحة الابداع والابتكار كما كان يفعل عندما يمدح او يرثى ميتا.

قال يتغزل:

اعطاك دمعك جهده فشكا فؤادك وحده
حملت جسمك في الهوى مالم يطقه فهده
ياشامتا بي اذ راى هجر الحبيب وصده
لاتشمتن فانه مولى يؤدب عبده

أذا امعنا النظر في الابيات المتقدمة لوجدنا ان الشاعر قد اعاد معان طالما طرقت من شعراء سبقوه، بل نراه في البيت الاخير يسف اسفافا لايليق بشاعر كابي تمام عندما يخاطب عذاله وحساده قائلا لهم، لاتفرحوا بهجر الحبيب وصده عني فهو اذ يفعل ذلك يريد تاديبي كما يقوم السيد بتأديب عبده، واظن هذا المعنى لايتفق ولا يتماشى ومكانة الشاعر الذي كثيرا ما ساح في عوالم اذهلت الاخرين واجبرتهم على إحترام مكانته الشعرية.

وقال يصف شادنا كان يقوم بخدمته:ـ

وقهوة كوكبها يزهر يسطع منه المسك والعنبر
وردية يحملها شادن كانها من خده تعصر
مازال قلبي مذ تعلقته اعمى من الهجران ما يبصر
مهفهه لم يتسم ضاحكا مذ كان الاكسد الجوهر
بحبه يقبرني قابري عند مماتي، وبه انشر

لو قرأنا الابيات وتمعنا في معانيها لوجدنا انها معاني مكررة ومعادة، لم يتسن لصاحبنا من خلال ابياته هذه ان يتحفنا بصورة جديدة او

بخيال انيق بل قد نجد العكس، فانه في البيت الاخير يتناول معنى سوقيا، هو ابعد ما يكون عن المعاني الشعرية لا في لغته ولا في معناه.
واذا قلبنا ديوان حبيب لعثرنا على الكثير من هذه الاشعار التي تتفاوت قوة وضعفا وهذا ما دعا بعظهم ان يخرجه من قائمة الشعراء كما فعل دعبل عندما لم يدرج اسمه في كتابه «الشعراء».
ونحن لا نتطرف كما تطرف الشاعر دعبل، بل نقول ان الشاعر ياتي بالجيد والرديء وهذا المتنبي الاسطورة كثيرا ما نجد في شعره من السقطات والسفاسف ما لايليق بمكانته الشعرية. ولكننا نستطيع ان نقولها بكل ثقة: ان ابا تمام في مديحه ورثائه يختلف تماما عنه في الاغراض الاخرى.

قال متغزلا :ـ

ومنفرد بالحسن خلو من الهوى
بعيد باسباب التجرم والعتب
ولوع بسوء الظن لايعرف الوفا
يبيت على سلم ويغدو على حرب
زرعت له في الصدر مني مودة
اقامت على قلبي رقيبا من الحب
فما خطرت لي خطرة نحو غيره
من الناس الا قال: انت على ذنب

ان الابيات لاتخلو من جمال وجرس موسيقي فهو يخاطب صاحبه معتبرا اياه وحيدا في الحسن الا انه يشوب ذلك الحسن بالعتاب المتصل والشك والظن بالاخرين.
فهو مولع بالشك اما الوفاء فلا يعرف الى قلبه طريقا ما ان يصفو وده، حتى يكدره بالغضب والخصومة والبيت الثالث جميل وخاصته تلك الاستعارة الجميلة حيث ان شاعرنا مكن له المودة في نفسه كما تتمكن النبتة في اعماق الارض، وما صنع ذلك الا لهيامه به ولكي يكون ذاك الود حارسا امينا لايسمح لحب اخر ان يتمكن من قلبه.
ولكن ركاكة البيت الاخير قد ذهبت بالمعنى الذي سبقه، اذ يدعى انه يعد مذنبا في نظر محبوبه اذ لاح خيال غيره في خاطره.

وهذه المحاورة في البيت الاخير لاتليق بالشعر بل هي بالنثر اليق.

وقال في الوقوف على الاطلال:

اجـل ايـهـا الـربـع الـذي خـف اهلـه
لقـد انجـزت فيـك الـنـوى مـاتحـاولـه
وقفـت واحشـائـي منـازل لـلاسى
بـه وهـو قفـر قـد تـعفـت منـازلـه
اسـائلكـم مـا بـالـه حكـم البـلـى
عليـه والا فـاتـركـونـي اسـائلـه

هنا يقف الشاعر وقفة معروفة طالما قرأنا امثالها في الشعر الجاهلي، فالمكان قد خلا من اهله لان البعد ومغادرة المكان قد جعلتـه قفرا موحشا وعند وقوفه تذكر اوقاتا جميلة قضاها في هذا المربع وهذه الديار فراح الحزن ينهش في نفسه والحنين يعاوده ولكن انى له ذلك وقد اصبحت الديار اثارا موحشة بعد ان رحل عنها اهلها وهنا يلتفت الشاعر الى اصحابه وهو في حيرة ليسألهم ما السبب الذي دعا الفناء ان يحكم على تلك الربوع وكان وهو يسال اصحابه، يعلم ان اصحابه كذلك عاجزون عن الجواب، اذن فليسأله هو بنفسه عل سؤاله هذا يشفي غليله ويطفى في نفسه لهيب الذكريات فكما ترى ان الشاعر لم يات بجديد في هذا بل هي معاني مستعارة من الشعر الجاهلي الذي ابدع ايما ابداع في تصوير الاطلال وما تبعثـه في النفس من لوعة وحنين وقال يعاتب عبدان بن طاهر، لان الحجاب قد منعوه وصدوه عن مقابلته.

زدنـي حجـابـا، فـانـي زائـد امـلا
الي نـداك بحسـن الظـن متصـلا
لـو لـم تكـن مضمـرا لي مـا انيلـه
اذنـت لي، مـامنـعـت المطـل والـعـلـلا
ان السمـاء اذا طـال المخـاض بـهـا
جـادت بـويـل يـعـم السـهـل والجبـلا

يقول: اكثر من حراسك ليحولوا ما بيني وبينك فانني كلما منعوني من الاتصال بك وحالوا ما بيننا، يكبر املي في عطائك ومنك

واستشهد على ذلك بظاهرة طبيعية هي ان السماء اذا ما تلبدت بالغيوم وتاخر نزول المطر فانا توصي بانواء وامطار ستنعم بها الاراضي سواء اكانت منخفضة او مرتفعة.

وقال يصف المطر:

الغيم مـابـين مـطبـوق ومصـطبـح من ريق مكتفـلات بـالثـرى دلج
دهم اذ ضحكت في روضـة طفقت عـيـون نـوارهـا تبكى مـن الفـرج

الغيوم التي تسبح في الافق صبح مساء هي التي تتكفل بري الارض بعد ان انتظرت طويلا فرج السماء.
فاذا ما قدر لها ان تعانق الارض وتلامسها عند ذاك ستبكي عيون الازاهير فرحا بالفرج بعد الشدة ذلك الفرج الذي طالما انتظرته الارض من السماء.

وقال يهجو رجلا يدعى مقران المباركي ويحقره.

أمقران يـا ابـن بـنـات العـلوج ونـسـل اليـهـود شـرار البشر
لقـد صـرت بـين الورى عـبـرة ركـبـت الهـمـاليـج بـعـد البـقـر
وبـدلت بـالمـر ذامـيـعـة ومـا ان لسـوطك فـيـه اثـر
يـجـر الخـزور وشـيـخ له بـنـهـر المـبـارك مـا يـسـتـتـر
فـقـولا لمـقـران قـيـم المـقـام وهـذا حـصـادكـم قـد حضر
بـع السـيـف ثـم اتـخـذ مـنـجـلا وابـدل بـسـوطك رمـثـا وسر
الى النـار في غـير حـفـظ الا له غـرّقـك الله يـا مـنـحـدر

الشرح:

يامقران يا ابن الاعاجم، ويامن نزلت من ارحام اليهود وهم اخبث الناس واشرهم.
امرك عجيب بين الناس فقد صرت تركب البغال والحمير «الهماليج، الدواب الخفيفة السير، التي تهملج في سيرها» بعد ان كنت راعيا للبقر.
وقد تبدلت حالك فبعد ان كنت تحمل الفاس لتحفر الارض صرت تتخذ لك ركوبا خفيف الحركة «الميعة الخفة والنشاط بينما انت ترتدي

افخر الالبسة «الخزور، المال والكساء» وتقتني ما تقتني من اثـاث ومال، تركت اباك بنهر المبارك عاريا من شدة فقره لايجد ما يستتر به فاخبروه لم هو قائم بينكم وهذا اوان الحصاد قد جاء فالاحرى به ان يتهيا للحصاد.

فالاحسن لك ان تبيع سيفك وان تشترى بدلا منه منجلا لتستعمله في الحصاد واستبدل بسوطك هذا الذي تحمله لتهوي به على حمارك وبغلتك ـ الة تنفعك في حصادك.

ان مصيرك النار بعيدا عن رحمة الله واحسانه واغرقك الله لان امثالك من المنحدرين اخـلاقيا عليهم ان يغـادروا هذه الحيـاة شر مغادرة.

قدمنا نماذج من اشعار ابي تمام في شتى الاغراض وحسب ما اعتقد ان ابا تمام كان في غير المديح والرثاء شاعرا عاديا كباقي الشعراء ناقلا للصور الشعرية التي سبقته ومكررا تشبيهات الاخرين غير انه قد يختلف عنهم في شيء واحد، انه اكثر من استعمالات المحسنات البلاغية كالمجاز والكتابة والاستعارة وغيرها.

وقد عاب عليه قوم ذلك وسكت قوم اخرون وراح يصفق له جماعات راوا في منحاه هذا شيئاً من الابداع والتجديد، وسنتناول اراء هؤلاء في هذا الشاعر في موضوع منفرد اطلقنا عليه «التجديد» في شعر ابي تمام.

ابو تمام.... الشاعر المجدد

قبل ان نخوض في هذا الموضوع علينا ان نحدد معنى التجديد كيما تكون احكامنا واضحة وان يكون نقدنا لشعر هذا الشاعر دقيقا. فالنقد اذا صدر عن دراسة واعية ونظرة شمولية واحكام نقدية موضوعية بعيدة عن الهوى والميول الشخصية، اذا كان النقد يحمل مثل هذه الصفات عندها يستأهل ان يطلق عليه كلمة «نقدا» هذا بالاضافة الى ثقافة الناقد ووعيه وسمو ذوقه الادبي والا كان هراء لا طائل من تحته ومهاترات لاتغني ولا تسمن من جوع.

التجديد يحتمل معنى الجدة في الشيء تقول جددت اثاث بيتي اي عملت اثاثا جديدا ويحتمل معنى التغيير كذلك فاذا قلنا جدد فلانا افكاره بمعنى ادخل عليها افكارا جديدة بحيث اصبحت ملائمة للظروف التي يعيشها ويحياها اذن نخلص من هذا ان المراد بالتجديد الادبي هو تغيير واضح وملموس يطرا على بعض جوانب النص الادبي سواء حصل هذا التجديد في الشكل كما فعل ابو نواس عندما ثار على بدء القصيدة العربية بالبكاء والوقوف على الاطلال، واستبدلها بالتغني بالخمرة قال مخاطباً من كان يبدا قصائده بالبكاء والعويل:

عاج الشقي على رسم يسائله ورحت اسأل عن خمارة البلد

او ان يكون التغير في شكل العمود الشعري الذي كان يخضع لوحدة البيت، والبيت نفسه يتالف من شطرين كل شطر منهما يخضع لنفس التفاعيل فالطويل مثلا هو

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ولابد ان يكون الحرف الاخير من الشطر الثاني متشابها في كل ابيات القصيدة لهذا عدت الموشحات الاندلسية تجديدا في عمود الشعر كما اعتبر الشعر الحر الحديث ثورة على عمود الشعر القديم او يكون التجديد في المعاني كما نرى ذلك بوضوح في شعر المتنبي الذي استولد الكثير من المعاني التي لم تطرق من قبله.
واخيرا ان يكون التجديد خاضعا للصورة الشعرية الجديدة التي لم تكن مالوفة من قبل كما نلمس ذلك بكل جلاء في اشعار صاحبنا ابي تمام حبيب بن اوس الطائي لقد تحقق لهذا الرجل مالم يتحقق لغيره من الشعراء عندما نجح في استعمال الاساليب البلاغية التي طعمها بتصورات فلسفية وتاملات فكرية عميقة فلقد استفاد من شيوع الاراء الفلسفية في عصره فاستطاع بكل مهارة وتفنن ان يزاوج مابين الصور البلاغية وتلك التاملات الفلسفية ليقدم لنا من خلال هذا التزاوج صورا شعرية جديدة لم تكن معروفة من قبله ثمة من يقول ان البلاغة كانت معروفة قبل ابي تمام فالشاعر مسلم بن الوليد كان مولعا بها وكذلك بشار بن برد واضرابهما من الشعراء...
نعم كانت مستعملة ومعروفة ولكن الجديد في شعر ابي تمام انه استطاع ان يستعملها بكثرة وان يخلع عليها وشاح التامل الفكري... الذي نستطيع ان نعده ـ تجوزا ـ تاملا فلسفيا، وهذا ما يفسر لنا غموض كثير من الصور الشعرية التي اوردها شاعرنا حتى ان بعظهم قال بعد ان انتهي من انشاد بعض قصائده «لماذا تقول مالا يفهم» فرد عليه ابو تمام «ولماذا لاتفهم مايقال» لان الفكرة او الافكار التي كان يعرضها الشاعر، والصور التي كان يقدمها خلال انشاده كانت واضحة في ذهنه من خلال تاملاته وتصوراته هو اما الاخرون فكانوا

يجدون عنتا وارهاقا في استيعاب تلك الافكار وتذوق جمال تلك الصور.
او بالاحرى ان اذواق السامعين لم تتعود بعد على مضغ تلك الافكار واستجلاء تلك الصور لانها كانت جديدة بالنسبة اليهم قال يرثى الطوسي القائد

تردى ثياب الموت حمرا وما دجا
لها الليل الا وهي من سندس خضر

كان متلفعا ـ عندما خر صريعا بدمه الاحمر ولكن ما ان غابت الشمس حتى تحولت تلك الثياب المصبوغة بالدم الى ثياب من سندس واستبدلن لان الجنان قد استقبلته فيما استقبلت من الشهداء وراح يختال في لباس الشهداء والصديقيين.
ان هذا التصور الجديد للاستشهاد وهذه الالوان المتغايرة التي عرضها الشاعر باسلوب جديد لم تكن معروفة من قبله... اقول ان هذا العرض الجديد هو تذوق جديد في كيفية استعمال الاساليب البلاغية لقد شاع استعمال الاستعارة قبل ابي تمام ولكن احدا لم يصل الى ما وصل اليه شاعرنا فلم يستطع شاعر من قبله ان يظهرها بهذا الشكل الجديد ولا ان يعرضها هذا العرض الانيق.
ودون شك ان شيوع الدراسات الفلسفية وتعدد الفرق الكلامية في عصر الشاعر كان لها الاثر الواضح في تنميق الصورة الشعرية وتعميقها.
قد يقول قائل ماهو دور الفلسفة والفرق الكلامية في الشعر؟
والجواب، ان دور الثقافة بكل انواعها وخاصة الفلسفية منها لها تاثير مباشر على صقل الفكر وعمق النظرة وشموليتها سواء كان هذا المثقف كاتبا ام شاعرا ام فقيها لان العامل الثقافي ذو تاثير مباشر على اهتزازات المشاعر وفيضان الوجدان اللذين يعتبران المعين الذي يستقى منه الشاعر انفعالاته النفسية والنيض الذي يغترف منه صوره الشعرية.
من هذا المنطلق يحق لنا ان نحكم على ابي تمام انه مجدد نعم... انه

مجدد لانه استطاع ان يضفي على الصورة الشعرية ابعادا جديدة لم تكن لها من قبل.

والان لنعود ثانية ونستمع الى ابي تمام وهو يصدح من على ابك الشعر لنرى مدى هيام ها الرجل بالمحسنات البديعة من تشبيه واستعارة وطباق وجناس وغيرها، التي اتخذها عونا وسلما يرقى به الى تلك الصور الرائعة التي اتحفنا بها قال في اول قصيدته «فتح عمورية»

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعة
بين الخميسين لافي السبعة الشهب

لقد استعمل الطباق مرتين في البيت الاول عندما جمع مابين «السيف والكتب» وبين «الجد واللعب» كما استعمل الجناس في قوله «في حده الحد» كما استعمل في البيت الثاني الجناس بين «الصفائح والصحائف والطباق بين بيض وسود ومع كثرة هذه المحسنات ووفرتها فان المعنى بقي شامخا والفكرة عالية سامية ففي هذه الابيات كما هو معروف يشير الى العرافين الذين استعان بهم المعتصم ليقولوا قولهم في هذا الهجوم الذي اعده ولكنهم تشاء موامنه وطلبوا منه ان يؤجله ولكن الخليفة لم يابه لارائهم فجهز الحملة وكان الانتصار محالفا لجيش المسلمين وهكذا يستهل الشاعر قصيدته التي يمدح بها الخليفة المعتصم ويسفه اراء المنجمين والعرافين فيقول.

ان الحكم الفاصل والاخير للقوة فحد السيف هو الذي يحسم الامور لا النظر في بطون الكتب.

والعلم الصادق الذي يجلب النصر يكمن في رؤوس الرماح التي تلمع بين الجيشين لا في النجوم وما تشير به من احكام واهبة.

فهل في هذا الكلام ما يعيب او يقلل من شاعرية شاعرنا اظن او اجزم ان احدا لم يؤيد القول السابق ماقدمته هو نموذج بسيط لولوع صاحبنا بالاساليب البلاغية التي هام بها كل الهيام واكثر من استعمالها حتى عاب عليه بعظهم هذا التدله بهذه المحسنات قال ابن الرومي يعيب على صاحبنا اتجاهه هذا «ان ابا تمام كان يضحي بالمعنى الجليل من اجل ان يقع على استعاره اوجناس او طباق» والان سنعرض بعض اشعاره التي احتوت... صورا شعرية وافكارا لم تطرق، بل طرقت من قبل ولكن عرضها من قبل شاعرنا كان عرضا جديدا. قال مادحا:

اتاكم سليل الغاب في صدر سيفه
سنى لدجى الاظلام والظلم هاتك
اذا سيل سد العذر عن صلب ماله
وان هم لم تسدد عليه المسالك

ان الذي ابتلاكم الله به هو بطل لايجابه فهو يحمل سيفا في راسه نور يزيح به الظلام الذي ساد والظلم الذي هتك كل جوانب الخير والنور.
اذا ما سار الى [illegible]ل او حرب فلا يسير اليه معتديا بل هو يندفع لحماية عرضه وماله، واذا ما صبا الى شيء او ارادة وصل اليه وناله، وان كثرت الحواجز والحدود مابينه وبين مايصبو اليه.
فلو تمعنا في قراءة البيتين لشعرنا بحيرة وخاصة في البيت الثاني فقوله «اذا سيل سد العذر عن صلب ماله» هو معنى صيغ صياغة جميلة لاتخلو من روعة وقوله:

يستعذبون مناياهم كانهم   لاييأسون من الدنيا اذا قتلوا
اسد العرين اذا مالروم صبحها   او صيحته، ولكن غابها الاسل

صور لنا في هذين البيتين المدوحين تصويرا جميلا اذ كانوا يستقبلون اجالهم ـ وهم في نزالهم مع اعدائهم ـ بترحاب كانما كانوا يجدون في استشهادهم متعة ولذة يقينا منهم انهم وان ماتوا ـ سوف

لايفارقون الحياة فهم والحالة هذه لايبالون ولا يتخوفون من الموت لانهم اسود اذا ما التقى الجمعان، اسود محتمية في غاباتها الحصينة التي قامت الرماح فيها مقام الاعشاب والقصب والشجر فمن ذا الذي يستطيع ان يباغت اسدا في غابات احيطت من كل جوانبها بالرماح، حيث لا منفذ للدخول اليها ولتشاركني - ايها القارىء الكريم - في التمتع بهذا التشبيه الجميل الرائع الذي احتواه البيت الاتي:

رقاصى حرب طالما انقلبت له
قساطل يوم الروع وهي سبائك

ومعنى رقاصى حرب: الخبير بقوتها: القساطل جمع قسطل: غبار الحرب يقول: ان صاحبه خبير بفنون الحرب بصير بمعالجتها، فالغلبة دائما تكون له.. فسرعان ما تنجلي هذه الحرب وقد تحولت غبارها الى سبائك من الذهب مشيرا الى ما يغنمه ممدوحه في نهاية الحرب، فانه في الاول يخوض غبارها ويقتحم فرسانها وفي الاخير يكون النصر حليفا له والغنيمة كبيرة.
او يكون المعنى انه لحبه الشديد للحروب والقتال لايرى في غبار تلك الحروب الا سبائكا من الذهب.
وهي صورة رائعة فالغبار عندما يثور ينطلق في شبه دوائر تشبه السبائك الذهبية.
وقوله من قصيدة يمدح بها الخليفة المعتصم.

وقفنا على حجر الوداع عشية ولاقلب الا وهو تغلي مراجله
وفي الكلة الصفراء جؤذر رملة غدا مستقلا، والفراق معادله
تيقنت ان البين اول فاتك به، مذ رايت الهجر وهو يغازله

وقفنا ذات امسية مودعين والقلوب تخفق ولها وحشة لمن ستفارق حتى كانها راحت تغلي بما فيها.
وكان ممن ودعنا ضبى كان مستقرا في هودجه فلما آن اوان الفراق واوشك القوم على الرحيل بدا لي ان الفراق سيفتك بي عندما راح الهجران يغازل هذا الضبى ويستدعيه اليه.

وفي البيت الاخير تدغدغ اسماعنا انغام حلوة، وتعبيرات جديدة فلم نسمع من قبل ان البين والفراق يغازلان بل سمعنا ان البين قتال، والفراق شبح مرعب بالنسبة للاحبة، ولكن شاعرنا جاء بهذا المعنى الجديد، وصاغه صياغة ترتاح اليها النفس، حتى لتحس وانت تقرا هذه الابيات - ان البين نفسه اصبح من عشاق هذا الذي صمم على النأي والهجران، فراح يطارحه الغزل لكي يستميل قلبه ويجتذ به اليه.

وفي البيت التالي، نرى الشاعر يستجمع صورة رائعة طالما وردت على السنة الشعراء وهي صورة الطيور الجارحة التي تصاحب الجيوش المتقاتلة، لتنقض في نهاية الحرب على جثث القتلى، لتجعل منها طعاما وحياة لها والبيت هو

اقامت على الرايات حتى كانها   من الجيش الا انها لم تقاتل

فقد راحت اسراب الطيور تتبع رايات جيشنا وتحوم حولها حتى ان من يراها يحسبها تمثل فصيلا من فصائل ذلك الجيش غير انها لا تشترك في القتال والمعارك مع بقية الفصائل فمهمتها تبدا حيث تنتهي مهمة الجيش وتهدا المعركة.

صورة جميلة... فالرايات ترفرف فوقها والطيور ترفرف باجنحتها مع الرايات ايذانا بانتهاء المعركة، وانتصارنا على اعدائنا لانها تعودت منا ذلك.

وكقوله مادحا.

مواهب جدن الارض حتى كانها
اخذن باداب السحاب الهواطل

هي اخلاق تخلق بها صاحبه، منها الجود على من حوله فهو لاينفك متفضلا كالسماء التي تبقى تجود على الارض بالغيث والخير فكأن الممدوح، قد اكتسب تلك الاداب من السماء فراح يقلد السحاب الهاطل.

اقول... ان هذا المعنى قد ورد كثيرا في الشعر العربي ولكن بغير هذه الصياغة الانيقة التي جعلت من السحاب استاذا مؤدبا وممدوحه

لميذا نجيبا، يتاثر بتوجيهات استاذه ان مثل هذه الصياغة لايرقى اليها سوى خيال شاعرنا ابي تمام بما يمتلكه من خيال خصب، وذوق شعري رقيق ولنصغى اليه جميعا الى هذه الاستعارة الرائعة التي احتواها بيته التالي: قال:

زرعت له في الصدر مني مودة
اقامت على قلبي رقيبا من الحب

قال: زرعت ولم يقل تركت او فسحت او غيرهما من التعابير الشائعة لقد زرع له المودة كي تنمو يوما بعد يوم وتترعرع في ظلال تلك المحبة، التي نبتت في صدره وراح يسهر عليها كما يسهر الفلاح على زرعه ونباته.

وهو لم يفعل ذلك الا ليجعل من هذه المودة حصنا وسدا منيعا يقف امام كل حب اخر يحاول اقتحام صدره ليشاركه في ذلك الحب.

الم تشعر ايها القارىء الكريم بجمال هذه الاستعارة؟ فقد جاءت ناطقة بصدق ما كان يحمله من حب ووداد لحبيبه.

واخيرا دعنا نصيغ السمع لتلك الموسيقى الناعمة والمعاني اللطيفة والصور الناطقة وهو بصدد مدحه للخليفة المعتصم:

هو البحر من اي النواحي اتيته
فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه
ثناها لقبض لم تجبه انامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه
لجاد بها، فليتق الله سائله

الكرم ظاهرة اخلاقية تدل ان المتصف بها يتسم بنفس عالية وهمم سامية. وقد ثبت ان البخيل عادة يكون محروما من كثير من المزايا الانسانية والمثل العليا لهذا قال رسول الله (ص) «اللهم اعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا»

وفي هذه الابيات الثلاثة استطاع الشاعر ان يرسم لممدوحه صورة صارخة تدل على علو منزلته في السخاء والجود فهو كالبحر من اين

اتيته بادرك بالعطاء والجود مبتدا بالساحل ومنتهيا بـاللجج، التي غالبا ماتكون في وسط البحر فممدوحه في كل حالاته كريم معطاء فهو في هدوئه يشبه ساحل البحر وفي غضبه يشبه وسط البحر عندما تتلاطم الامواج فيه ويركب بعضها بعضا ولما كان البحر خيرا محضا كذلك ممدوحه فهو لا يصدر منه الا الخير والجود فهو لكثرة ما كان يعطي ويهب فقد تعودت يداه ان تكون ممدودة ـ كناية عن العطاء ـ حتى انه لو اراد ان يكفها لم تطاوعه على ذلك.
فهو دائم العطاء والهبات ولو لم يملك في يده غير روحه لما بخل بها ولأعطاها وجاد بها لمن طلبها منه اذن فليخاف الله جموع الناس الذين توجهوا نحوه طامعين في رفده وعطائه.
هي معان وردت في الشعر العربي كثيرا فقد شبه الكثير من الشعراء ممدوحيهم بالبحر ولكن قل من قدم لنا هذه الصورة الرائعة للبحر في حالتي هدوئه وهيجانه ساحله ولجحه ولتلك اليد الكريمة التي اعتادت ان تمتد الى من يسالها لتقدم اليه ما يرغب فيه فهي لاتني ممدودة ومبسوطة بالسخاء والعطاء واخيرا فهو وهاب لنفسه حتى اذا كان لا يمتلك سواها.
واخيرا يرجو شاعرنا بقوله «فليتق الله سائله» من طالبي الاحسان والطامعين في كرم ممدوحه ان لا يغدوا اليه طالبين رفده، وان لايلحفوا في الطلب لان الحافهم هذا قد يكون سببا في ضياع الممدوح واخيرا بامكاننـا ان نقول في شعـر حبيب بن اوس الطائي انه كـان يمتاز

بصفات ثلاثة :ـ

اولها: المحسنات البديعية:

التي لج صاحبنا في استعمالها واكثر منها في ثنايا شعره، حتى عد هذا تجاوزا من ابي تمام عـلى اصالة الشعـر لان الاكثار منهـا في نظر هولاء ـ قد توقع صاحبها فيما لاتحمد عقبـاه. وهذا حق اذا كـان استعمالها مخلا بالمعنى مشوشا للفكرة.
نحن لاننكر ان صاحبنا كان يتورط في مثل هذا احيانا ولكن في اغلب

اشعاره كان موفقا في استعمال المحسنات البديعية وممن عاب عليه اسرافه الشاعر ابن المعتز، الذي قال في ابي تمام «انه افسد ذوق معاصريه لكثرة استعماله للمجاز».
حقا كان في بعض الاحيان كما وصفه ابن المعتز ولكن هذا لايقلل من اهمية هذا الشاعر قال يمدح بعظهم:

يمدون من ايد عواصي عواصم
تصول باسياف قواضي قواضب

لقد حاول هنا ان يجمع بين الاسلوب البلاغي وسمو الفكرة فضحى بكليهما.
لقد حاول ان يستعمل الجناس في «عواص عواصم» وقواضي قواضب ولكنه لم يوفق كما اسلفنا فضاع المعنى وتلاشت الفكرة وجاء الجناس باهتا، ولكن ليس معنى هذا انه... في كل اشعاره التي مال فيها الى المحسنات البديعية كان غير موفق.. كلا ففي اغلب شعره هذا كان يحلق في اجواء لايرقى اليه احد من الشعراء مثالا على ذلك مطلع قصيدته التي مدح فيها المعتصم عندما فتح عمورية فقد شحنها بالمحسنات البديعية ومع هذا فقد اجاد في صياغتها كل الاجادة.
اما الصفة الثانية التي ظهرت في شعر ابي تمام فهي الصياغة المعنوية الجديدة التي حاول في اخراجها ان يوائم مابين الصورة البلاغية والتصور الفلسفي كقوله في رثاء الطوسي:

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
فاثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها، من تحت اخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمرا فمادجى
لها الليل الا وهي من سندس خضر

في هذه الابيات تصور شاعرنا ان الموت مستنقع ولكن وراء هذا المستنقع ما وراؤه من جنات ونعيم ثم الصورة الاخيرة للشهيد بينما هو يرتدي ثيابه الحمر ـ كناية عن الدم ـ الذي كان يغطى جسمه اذ

تنقلب الصورة فجاة فاذا هو يلوح في جنان الخلد في لباس اهل الجنة، وهو يختال في نعيم خالد مثل هذه الصور والالوان لم تكن معروفة في الشعر العربي قبل ابي تمام.
اما الصفة الثالثة: فهي الاغراب في الالفاظ الغامضة والمعاني المبهمة حتى عاب ذلك المرزباني في الموشح والجرجاني في اسرار البلاغة.
قال الجرجاني وهو ناقد عباسي كبير معيبا على ابي تمام الكثرة في استعمال البديع والغريب «ولم يرق ابو تمام بهاتين الخلتين ويعني البديع والتوليد حتى اجتلب المعاني الغامضة وقصد الاغراض الخفية فاحتمل فيها كل غث وثقيل وارصد لها الافكار بكل سبيل فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة».
وقد ذكر له بعض النماذج الشعرية الدالة على ذلك منها قوله.

ارى الناس منهاج الندى بعدما عفت
مهايعه المثلى ومحّتْ لواجبه
ففي كل نجد في البلاد وغائر
مواهب ليست منه وهي مواهبه

المهايع واللواجب بمعنى الطرق
يقول: استطاع الممدوح ان يكشف عن طرق الكرم بعد ان كادت تختفي وتتلاشى ففي كل مكان ترى اثارا لاخلاقه وكرمه تحسبها لاول وهلة ليست له لبعدها عنه ولكن اذا دققت النظر لوجدت ان اخلاقه وذكره قد طار ووصل الى كل مكان ففي كل مكان له اثر.
فقد نراه يستعمل في البيتين الفاظا غريبة ومعاني غامضة.
وكذلك قوله من قصيدة فتح عمورية..

انتهم الكربة السوداء سادرة
منها، وكان اسمها فراجة الكرب
كم بين حيطانها من فارس بطل
قاني الذوائب من اني دم ترب

المعاني : سادرة، مظلمة او مفاجئة: اني :حار: سرب. سائل ومعنى الابيات ان المصيبة والداهية الدهياء، جاءتهم من تلك المدينة التي كانوا يظنون انها قلعة حصينة ستحول مابينهم وبين ما حل بهم من فناء ودمار، وكانوا يعتقدون انها - اي المدينة - التي هدمت ستفرج كربهم وستزول عنهم الشدائد ولكن فرسانهم وابطالهم كانوا صرعى بالقرب من اسوارها وهم مضمخون بدمائهم الحارة السائلة ولكن مهما قيل ومهما عدت هذه الهفوات فانها لا تعد شيئا امام ابداعات ابي تمام ورحم الله القائل :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نيلا ان تعد معايبه

ولعل خير من انصف شاعرنا (من القدماء) واحله مكانه الذي يليق به هو الناقد الكبير ابو الفرج الاصبهاني في كتابه «الاغاني» الذي كال له المديح واطلق عليه - دون تردد - لقب امير الشعراء.

ولاتنس ان الاصبهاني هذا ناقد ذواقة يستطيع بما اوتي من رفاهة الحس، وصفاء الذوق ان ينفذ الى منابع الجمال الثرة في اشعار هذا الرجل، وان يستخلص منها الصور البديعية والمعاني الدقيقة الذي لم يستطع غيره ان يضع يده عليها لانه كان يتمتع بثقافة لغوية وادبية قلما وصل اليها احد.

فهو يقدم من اشعار ابي تمام مايجعله سندا قويا لارائه ويذكر له صورا من شعره ليؤكد بالحجة الدامغة على رصانة شعر الرجل وطلاقته وانفراده في استجماع صور شعرية جديدة لم يسبقه اليها احد من قبل كقول ابي تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رايت الشمس زيدت محبة
الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

ان مكوث الانسان في مكان واحد وعدم تحركه لطلب الرزق يجعل منه انسانا بليد الذهن مترهل الجسم اما السفر والاغتراب فيجددان فيه نشاط العقل والجسم.
الم تر الحكمة من غياب الشمس وظهورها؟ انها بصنيعها هذا فرضت على الناس حبهم لها ولو كانت تطالعنا ليل نهار، ولم تفارقنا ليلا لما احبها الناس هذا الحب وقوله:

تكـاد عطـايـاه يجـن جنـونـهـا
اذا لـم يـعـوذهـا بنفحـة طـالـب

والبيت رائع اذ لم يسبقه اليه احد من الشعراء ومعناه: ان كـرمه يصاب بمس من الجنون، ونـوع من الخيال اذا هـو لم يسمع من الاخرين من يطلب منه الجود والكـرم فكان هـذا الطلب يقع عـلى مسامعه وكانه انغام.
فتعويذة ذاك الجنون وحرزه هو العطاء والبذل الذي يصدر منه لكل انسان يطمع في رفده وقوله كذلك:

لاتنكـري عطـل الكـريـم مـن الـغنـي
فـالسيـل حـرب للمكـان الـعـالي

وهذا المعنى لا يقل روعة عن سابقه فهو صورة رائعة ناطقة استطاع شاعرنا ان يضعها في اطار التشبيه التمثيلي الذي هو تشبيه صورة بصورة اخرى فهو يخاطب من تلومه على فقره وسوء حالته فاجاب: انى للكريم ان يكون غنيا؟ فهو كلما اصاب مالا انفقه وجاد به فهل رايت مكانا عاليا قد استقرت عليه مياه السهول؟ بالطبع... لا فالمياه دائما تنحدر من الامكنة العالية نحو الاراضي المنخفضة فشبه الرجل الكريم بالمكان العالي والبخيل بالمكان الواطىء ولما كان المكان العالي لايستبقى ماء فكذلك الرجل الكريم لايستبقى مالا.
واخيرا ارجو ان اكون قد وفقت الى ايضاح فكرة التجديد عند ابي تمام التي تنحصر في تجديد الصورة الشعرية في شعره مستعينا مرة

بالاساليب البلاغة واخرى بالتاملات الفلسفية وكان احيانا يمـازج بينهما ليقتبس من البلاغة اروع صورها ومن التامـلات الفلسفية اعمق وادق افكارها ليجعل منهما سلما يرتقي به لصياغـة الصور الجديدة في شعره.

وكل ماقيل عن الرجل انه جرى اشواطا في حلبة الشعر فكان احيانا يندفع اندفاع الامواج المتلاطمة واحيانا اخرى يتهادى كالسحاب، الذي تظل العيون ترقبه والقلوب تلاحقه منتظرة منه الغيث والرجاء وكان من الطبيعي ان يكبو بين الفينة والفينة وهذا لايعيبه، ولا يعيب غيره من الشعراء وقد قالوا قديما «لكل جواد كبوة، ولكل سيف نبوة»

مختارات من شعره

قال يمدح المعتصم

١ - اجل ايها الربع الذي خف اهله
لقد انجزت فيك النوى ماتحاوله

ثم ينتقل الى المديح:

٢ - الى قطب الدنيا الذي بفضائله
مدحت بني الدنيا، كفتهم فضائله
من الباس، والمعروف والجود والتقى
عيال عليه رزقهن شمائله
جلا ظلمات الظلم عن وجه امة
اضاء لها من كوكب الحق افله
ولاذت بحقويه الخلافة والتقت
على خدرها ارماحه ومناصله
انته معذا قد اتاها كانها
ولاشك كانت قبل ذاك تراسله
بمعتصم بالله قد عصمت به
عرى الدين والتفت عليه وسائله
رعى الله فيه للرعية رافة
تزايله الدنيا وليست تزايله
واضحوا وقد فاضت اليه قلوبهم
ورحمته فيهم تفيض ونائله
اذا مارق بالغدر حاول غدرة
فذاك حرى ان تئيم حلائله
بيمن ابي اسحق طالت يد العلى
وقامت قناة الدين واشتد كاهله
هو البحر من اي النواحي اتيته
فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه
ثناها لقبض لم تجبه انامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه
لجاد بها، فليتق الله سائله

شرح القصيدة:

١ ـ يبدا القصيدة بالبكاء على الاطلال، كما كان موفقا في استهلال الكثير من القصائد، فيقف امام المكان الذي ترك فيه ذكريات حلوة وقد عف عليه الزمن، ورحل عنه اهله، فيخاطبه والالم يحز في قلبه، لقد حقق النوى والبعاد ما كاد يحاوله بعد ان اصبحت خال من قاطنييك.
٢ ـ اني اتوجه بمديحي الى من عليه ترتكز الدنيا، وبه تستقيم لاننا لو قسمنا فضائله على الناس لاكتفوا لكثرة تلك الفضائل والخصال الطيبة.
٣ ـ ان كل المثل العليا، والصفات الانسانية العظيمة تستقى الفضائل من شمائله واخلاقه التي فاضت حتى راح يتزود منها القاصي والداني.
٤ ـ بحكمته وعدله ازاح الظلمات والظلم عن الامة بعد ان كان الحق والعدل في ضياع فما ان جئت حتى اضاءت جوانب الحياة كواكب العدل والحق بعد ان ازاحت ظلام الظلم والفساد.
٥ ـ وقد احتمت به الخلافة وانقادت اليه، لانه اهل لها وما ان هرعت اليه لائذة به حتى احاطها بالعز والمنعة حيث جعل قدرها ومخدعها محاطا بالقسي والنبال، حتى لايستطيع احد من التقرب اليها.
٦ ـ اتته عائذة به مسلسة اليه قيادها، وكانما كانت تراسله على القبول بها قبل ان يستلمها.
٧ ـ بهذا الخليفة الذي احتمى باحكام الله، ولاذ يدفعه الحنين قد اقيمت احكام الدين، لانه خير من يحمي اركانه ويقيم بنيانه.
٨ ـ لقد انزل الله على قلبه رافة في رعيته هي باقية لا تفارقه حتى بعد موته.
٩ ـ فهد عوا حباً له واجلالا لشخصه لان عدله فيهم وكرمه لهم يزيدان يوما بعد يوم.
١٠ ـ ولكن ليس معنى هذا انه رحيم بالاعداء رؤوف بهم فاذا ما حاول غادر الغدر به، غدر به وقتله وترك زوجات الخونة أيامى لا ازواج لهن.

١١ ـ كان عهده عهد سعادة وخير فقد استطالت فيه صروح العلياء وقويت شوكة الدين.
١٢ ـ ما خلقه الله الا ليكون كريما معطاء فهو كالبحر ينال خيره وغيثه البعيد والقريب.
١٣ ـ لكثرة ماكان يعطى ويحسن ويهب فأن يده قد اعتادت ان تكون مبسوطة فلو اراد ان يثنيها لاستلام شيء تعذر عليه ذلك لانه تعود على العطاء فحسب.
١٤ ـ حتى انه لو لم يمتلك غير نفسه وجاء يطلبها منه طالب لما تراجع وبخل بها، اذن فما على قصاد رفده وطالبي جوده واحسانه الا ان يترفقوا في طلباتهم، حتى لايرهقوه من امره عسرا.

وقال يرثي عمير بن الوليد:

كف الندى اضحت بغير بنان
وقناته امست بغير سنان
جبل الجبال عدت عليه ملمة
تركته وهو مهدم الاركان
انعى عمير والوليد لغارة
بكر من الغارات او لقوان
انعى فتى الفتيان غير مكذب
قولي وانعى فارس الفرسان
عثر الزمان ونائبات صروحه
بمقيلنا عثرات كل زمان
لم يترك الحدثان يوم سطابه
احدا نصول به على الحدثان
قد كنت حشو الدرع ثم اراك قد
اصبحت حشو اللحد والاكفان
شغلت قلوب الناس ثم عيونهم
مذ مت بالخفقان والهملان
واستعذبوا الاحزان حتى انهم
يتحاسدون مضاضة الاحزان

مـايـرعـوي احـد الى احـد ولا
يشتـاق انسـان الى انسـان
اصـاب منـك المـوت فـرصـة سـاعـة
فـعـدا عليـك وانتمـا اخـوان

شرح القصيدة:

١ ـ يوم فقدك تعطل الكرم واضحى بغير بنان اذ ان واسطة الجود هي اليد، اما ارماحه فقد فقدن اصولهن وهن الأسنة اذ ان الرماح بدون الاسنة لاتساوي شيئا.
٢ ـ وقد انهدت الجبال، بعد ان كانت رواسي عندما فجعن بموتـك فتقوضت اركانها حزنا عليك.
٤ ـ لقد صدق القول وشاع الخبر في وفاتـك، وفقدنـا فيك فـارسا لايضاهيه فارس.
٥ ـ واخيرا انفردت نائبات الزمان وحكم القدر بالموت على انسان كان عونا لنا على نائبات الزمان وغدره.
٦ ـ لم تترك لنا صروف الدهر ونائباته احدا نلوذ به ونحتمي بسطوته على مايخبأ لنا الدهر من نكبات ونوائب.
٧ ـ كنت دائما متهيا للحرب مرتديا لباسها والان مطمورا بين اللحد والاكفان.
٨ ـ راحت عيـون الناس تبكيـك وقلوبهم تخفق عليك حـزنـا يـوم افتقدوك.
٩ ـ حتى انهم وجدوا في الحزن راحة فراح بعظهم يحسد بعضاً على شدة مايحملون من احزان.
١٠ ـ لايلتقي بعضهم ببعض فقد حرمـوا على انفسهم الاجتمـاع لانهم بعدك فقدوا الحب والشوق.
١١ ـ لقد اغتنم القدر فرصة واهتبل وقتا وانقض عليـك علما انت والموت اخوان فكلاكما يحصد النفوس ويعدو على الابطال.

قال متغزلا:

يوم الفراق لقد خلقت طويلا
لم تبق لي جلدا ولا معقولا
قالوا الرحيل فما شككت بانها
نفسي عن الدنيا تريد رحيلا
الصبر اجمل، غير ان تلددا
في الحب احرى ان يكون جميلا
اتظنني اجد السبيل الى العزا
وجد الحمام اذا الى سبيلا
وبنفسي القمر الذي يمحجر
امسى مصونا للنوى مسلولا
اني تاملت النوى فوجدتها
سيفا على مع الهوى مسلولا
لاتاخذني بالزمان فليس لي
تبعا، ولست على الزمان كفيلا
من زاحم الايام ثم عبا لها
غير القناعة لم يزل مغلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه
روضى الاماني لم يزل مهزولا

شرح الابيات:

١ ـ ما اطول ايام الفراق، وما امر اوقاتها فانها تذهب بالمعقول وتأتي على الصبر.
٢ ـ ما ان سمعت برحيل الاحبة حتى كادت نفسي تنازعني وترحل عن جسدي.
٣ ـ ان التصبر جميل، وخاصة على فراق الاحبة غير ان التلفت الى من تحب قبل ان يرحل عنك، ربما يطفىء غليل حبك فذاك احرى واجمل بمن يحب.
٤ ـ اتعتقد انني ساجد عزاءً بعد فراق الاحبة؟ لا اظن ذلك ان الموت سيجد سبيله الى نفسي قبل ان اجد العزاء.

٥ ـ افدي بروحي ذلك الحبيب، الذي هل علينا غير ان حسام الفراق قد حال مابيني وبينه.
٦ ـ لقد تفكرت في البعاد فوجدته امضى من السيف وقعا هذا الى جانب تباريح العشق والهيام.
٧ ـ لاتلومني على مافعلت الايام عندما فرقت بين الاحبة فلست تابعا للزمان ولا انا متكفل باعماله.
٨ ـ من عارك الايام وتهيأ الى مقارعتها ولم يتشح بوشاح القناعة سينهزم حتما امام صروفها.
٩ ـ اما الذي لم يمتلك في هذه الحياة غير الاماني مثل هذا سيكون ضعيفا لا يصل الى مايريد.

قال في مجلس شراب:

اصبْ بحميا كاسها مقتل العذل
تكن عوضا ان عنفوك عن التبل
وكاس كمعسول الاماني شربتها
ولكنها اجلت وقد شربت عقلي
اذا عوقبت بالماء كان اعتذارها
لهيبا كوقع النار في الحطب الجزل
اذا هي دبت في الفتى خال جسمه
لما دب فيه قرية من قرى النحل
اذا ذاقها ـ وهي الحياة ـ رايته
يعبس تعبيس المقدم للقتل
اذا اليد نالتها بوتر تزقرت
على ضعفها ثم استقادت من الرجل
سقى الرائح الغادي المهجر بلدة
سقتني انفاس الصبابة والخبل
سحابا اذا القت على خلفه الصبا
يدا، قالت الدنيا اتى قاتل المحل
اذا انتشرت اعلامه حوله انطوت
بطون الثرى منه وشيكا على حمل

تــرى الارض تــهتــز ارتيــاحــا لــوقــعــه
كمــا أهتزتْ البكــر الــهــدى الى البــعــل
فجــاد دمشقــا كلــهــا جــود اهلــهــا
بــانفســهــم عنــد الكــريــهــة والبــذل

شرح الابيات

١ ـ تناول بقايا كأسك، وعندها سيختفي من مخيلتك شبح العذال والحاسدين فهو بدل تعنيفهم وحســدهم اي انك بتنــاول الشراب ستنسى كل ما يقال ويشاع عن حبك.
٢ ـ وطالما قد تناولت الشراب لادارى به ما كان عالقا بنفسي من وجد وهيام وكانت تجلى عن الهموم وتبعدها بعـد ان كانت تـذهب بعقل وتفكيري.
٣ ـ اذا مازجتها بالماء اصبحت شعلة من لهب.
٤ ـ اما اذا لعبت الخمرة في عقـل شاربهـا احس بارتخـاء جسمه وخدره، وكان اسرابا من النحل راحت تتحرك داخل جسمه.
٥ ـ اذا ماوضعها في فمه لاول مرة بدا على وجهه العبوس والتقزز كانما قد اقتيد الى الموت.
٦ ـ الخمرة تصبر على شاربها حتى اذا ما ثمل وانتشى اخذت بثارها من رجله تشير بذلك ان الشارب عندما يسير بعد ان يتناول كفايته من الشراب يشير وهو مرتخي الرجلين.
٧ ـ هنا يدعو للبلد بالغيث والخير لما قـدمه له من فـرص الشراب والانس
٨ ـ سحــابا يحــركه ويــداعبه ريــح الصبا، حتى اذا راتــه الدنيا استبشرت بمجيء المطر، الذي يقضى على القحط والمحل.
٩ ـ ما ان يبدو ذلك السحاب في السماء حتى يستبشر الثرى وتبتسم الارض لانها ستخضر وتزهر.
١٠ ـ فالارض مغتبطة بقدوم السحاب اغتباط المراة البكر بالرجل او الزوج.

١١ ـ وماهي الا لحظات حتى جاء بغيثه على كل دمشق جودا يشبه جود اهلها بانفسهم وقت الحروب والنوازل.

كـان لنفسي امـل فـانقضى فـاصبـح اليـاس بـهـا مـعـرضـا
اسخطني دهـري بعـد الـرضـا وارتجـع العـرض الـذي قـد مضى
لـم يظلـم الـدهـر ولكنـه اقـرضنـي الاحسـان ثـم اقتضى

شرح الابيات:

١ ـ كان يداعب النفس امل فولى هذا الامل وحل محله الياس والامال هي التي تدفع الانسان الى الحركة والعمل بل احيانا تحفزه الى جلائل الامور ـ ماصعب العيش لولا فسحة الامل
٢ ـ اغضبني دهري بعد ان مد لي حبل الرضا وهيأ لي من الحياة كل رائق وبديع ولكن هذا لم يطل، بل سرعان ما اعاد هياته وفضائله.
٣ ـ وفي هذا لم يكن الدهر ظالما ولا جائرا بل انه قدم لي السعادة دينا فعاد ليسترد دينه.
وقال يصف غربته في نيسابور وحنينه الى مواطنه دمشق.
صـريـع هـوى تفـاديـه الهمـوم بنيسـابـور ليس له حميم
غـريـب ليس يـؤنسـه قـريـب ولايـأوى لغـربتـه رحيـم
فـلا عجب وقـد نفهت ركـابي بـارض طار طائـرهـا المشـوم
فقـد فـارقت بـالغـربي دارا بـارض الشـام حف بهـا النعيم
هي الوطن الذي فـارقت فيـه وفارقني المسـاعـد والنـديم
وكنت بهـا المـمنـع غـير وغـد ولا تكـد اذا حـل العـظيـم
فـان اك قد حللت بـدارهون صبـوت بهـا فقـد يصبـو الحكيم
الومـك لا الوم سـواك دهـرا قضى لي بـالذي يـقضى سـدوم
وفي الدنيـا غنـى لم انب عـنـه ولكن ليس في الدنـيـا كـريم

طوال مكوثي في مدينة ينسابور وانا تحت رحمة الهموم التي كانت لاتنفك تلاحقني اينما حللت لا اجد صديقا فيها يخفف من الام تلك الهموم.

فلا تعجب ان مطيتي قد اصابها الاعياء في هذه الارض التي خيم عليها الشؤم.
وكنت بارض عزيز الجانب كريما اعيش عيشة العظماء اما ان اكون قد اخطات ونزلت هذه الارض فكثيرا مايخطىء الحكيم.
اني اذا مالت فانما الوم دهري الذي جار علي باحكام قاسية جائرة كالاحكام التي كان يصدرها قاضي مدينة سدوم وهي احدى مدن لوط..وقد اشتهر قاضي هذه المدينة بالجور في احكامه وابواب الرزق مفتوحة امامي واني اعرفها فلم أحدْ عنها ولكن لم يبق في الدنيا كريم يرتجى.

واخيرا سنستمع اليه وهو يصف لنا حجة قام بها:

لعلك ذاكـر الطلل القـديم ومـوف بـالعهـود عـلى الرسـوم
وواصـف نـاقـة تـذر المهـارى مـوكلة بـوخـد او رسيم
وقـد اممت بيت الله نضـوا عـلى عيـراتـه حـرف سقـوم
اذاب سنـاقهـا قـطع الفيـافي ومـزق جلدهـا نضـج العصيم
اقـول لهـا وقـد اوفـت بعـين الى تـشكـي الدنف السـقيـم
بـكـورك اشعـر الثـقلين طرا واوفي النـاس في حـب صمـيـم
فمـالك تشتكـين وانت تحتي وتـحت مـحمـد بـدر النـجـوم
ولولا الله يـوم منى لابـدت هـواهـا كـل ذات حشى هضيـم
رمـين اخـا اغتـراب والتئـاب بعـين جـؤذر ويـجيـد ريـم

شرح الابيات:ـ

١ ـ الا داعبتك ذكرى الاطلال القديمة؟ وهـل انت موف بعهـودك لزيارة تلك الاطلال والرسوم
٢ ـ اما ناقتي فقد راحت تقطع الفيافي بسير حثيث لتصل الى الغاية التي رسمتها لها.
٣ ـ وقد توجهت نحو بيت الله على ناقة قوية ماضية في سيرها قوية ضافرة وكلي عزيمة ومضاء الى اداء فريضة الحج.

المعاني:-

نضو: دائمة السير، العيرانه: الناقة الصلبة. الحـرن: الضامـرة، السقوم: مثل النضو، السائرة دون أنقطاع.

٤ ـ هي ظامرة ـ اي الناقة حتى لاتكاد ترى لها سنـاما لكثـرة ما قطعته من صحارى وفيافي حتى أن عروقها بدات تظهر لكثرة هزالها. «العصيم: عرق الناقة»

٥ ـ حاولت ان اخاطبها ولكنها تنظر الي بعين توحي بالعناء والتعب كما توحي عين المحب الهزيل بالخفوت والذبول، لقد خاطبتها قائلا انـك تحملين اشعر النـاس قاطبـة وانقى الناس حسبـا لماذا اذن الشكوى وانت تحملين اشعر الناس وارقاهم نسبا، ومتوجهة بنفس الوقت الى الرسول (ص) الذي هو للبشر بمثابة البدر للنجوم.
ولولا اننا في بيت الله وفي موسم الحج لابدت هيامها بي كل غانيـة رشيقة القد معتدلة القامة ومع هذا فكن ينظرن لي نظرات ساحرات تنم عن مدى غرامهن بي وتعلقهن بشخصي.

الخاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في دنيا الشعر والشعراء مع رائد من رواد الشعر وعمود من اعمدته الذي ترك وراءه النقاد يمدحون ويقدحون فمن المادحين من انزله منزلة الامارة على الشعر كما ذهب الى ذلك ابو الفرج الاصبهاني عندما راح يقلب اشعاره معجبا بتلك الصور الشعرية الرائعة والمستجدة التي ابدعها خيال الشاعر الذي استطاع التحليق في اجواء لم تطلها اجنحة الشعراء الاخرين.

وقد هيات له الفترة التي عاشها اسباب ذلك الابداع والتجديد فلقد عرف عصره نهضة في الاداب والعلوم والفنون هذا الى جانب حركة الترجمة التي رعاها الخليفة المامون فنقلت الكتب الفلسفية الاغريقية وغيرها من فلسفات الشعوب الاخرى الى اللغة العربية واصبحت متداولة بين المثقفين العرب اضافة لما تقدم فقد كان صاحبنا ذا اطلاع واسع على الشعر العربي. يشهد بذلك مختاراته الخمسة التي انتقاها من عيون الشعر العربي والتي لم يصلنا منها الا «ديوان الحماسة» اما الاجزاء الاربعة الاخرى فلم نعثر لها على اثر اللهم الا اسماءها التي وردت في امهات الكتب الادبية.

ومن خلال تلك المختارات يبدو واضحا ان ابا تمام كان يتمتع بحس ادبي مرهف لانه استطاع ان يصطفي من اشعار العرب الدرر والجواهر وعيون الكلام.

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على باع طويل في تذوق الشعر وحاسة شفافه، في ارتشاف الرائع منه اما الاستقرار السياسي وانتشار الامن وازدهار الحياة فكان لذلك تاثيره الواضح والمباشر في نقاء خيال هذا الشاعر الذي استطاع ان يغوص في اعماق المعاني ويرفرف في اجواء الخيال ليتحف الادب العربي بصور شعرية ناطقة لم نكن نسمع بها من قبله. الامر الذي هياه ان يكون في عداد المبدعين، وطبقة المجددين.

بل، ان ابا الفرج الاصبهاني عده كما اسلفنا ـ اميرا للشعراء وثمة نقاد وشعراء اخرون عابوا على شاعرنا انكبابه على الاساليب البلاغية، انكباب العطش الضميء على الماء القراح.. عابوا عليه ذلك لانه اكثر من تلك المحسنات البديعية في شعره.. لانه في راى هؤلاء كان يتكلفها تكلفا. كما ذهب الى ذلك عبد القاهر الجرجاني في كتابه «اسرار البلاغة» وشاطره هذا الراى الشاعر ابن الرومي فقد راى كل منهما، ان شاعرنا كثيرا ما كان يترك المعنى ويجري لاحقا وراء استعارة او جناس او طباق بل احيانا كان يشوه المعنى، ويغامر بها من اجل الوصول الى الصورة البلاغية، التي تجول في خاطره.
ولكن الجرجاني وابن الرومي مع نقدهما هذا لم ينكرا على صاحبنا شاعريته ولم يتجاهلا تلك الأخيلة التي حلق بها هائما في عالم الشعر.
اما الفريق الثالث من النقاد فكانوا حربا على صاحبنا فقد تجرا احدهم واخرجه من قائمة الشعراء كما فعل الشاعر ديك الجن، عندما تجاهله، ولم يدرج اسمه في قائمة الشعراء في كتابه الموسوم «الشعراء» واني لعلى يقين ان هذا الفريق كان مدفوعا بدافعين اولهما انه تجن منهم على شاعرنا كان مبعثه الحسد او العداء الشخصي، وهذا يبدو واضحا اذا علمنا ان ابا تمام كان في يوم تلميذا يدرس الشعر على ديك الجن في مدينة حمص. فاذا بالتلميذ يتفوق على استاذه ويتوصل الى اعلى المراتب بعد ان يصبح شاعر الخليفة المعتصم لابد ان هذا قد ترك اثرا في نفس الاستاذ نحو تلميذه كان مبعثه الحسد... لاغير.

حسدا حملنه من اجلها وقديما كان في الناس الحسد

ومهما قيل في هذا الرجل فانه استطاع ان ياخذ مكانه بين الشعراء الكبار، والمجددين في عالم الادب والشعر لانه توصل كما اسلفنا ـ ان يخلع على الصورة التقليدية الشعرية اشكالا والوانا وخطوطا ونغمات لم تكن معروفة من قبل تماما كما يفعل الصانع الماهر عندما يتفنن في صيغته فيضفي عليها من خبرته وفنه مايزيدها جمالا وروعة وقد يلاقي امثال هؤلاء استحسان من بعض الناس الذين لهم القابلية على تذوق هذا التفنن وقد يقف اخرون ضد هذا التغيير لان عيونهم قد

تعودت على رؤية اشكال معينة والوان ثابتة فهي تنفر من كل تغيير او جديد في تلك الاشكال والالوان وهذا ما حصل لشاعرنا فانه بعد ان اضفى على الصورة الشعرية الوانا جديدة نتيجة لاطلاعه الواسع على الشعر العربي.. وعمقا فكريا استفادة من شيوع الاراء الفلسفية في عصره.

فلابد ان يصطدم هذا الجديد ببعض الاذواق التي لم تستطع ان تستوعب هذه الالوان ولا هذا العمق والشاهد على علو كعب الرجل في هذا المضمار ان شاعرا كالمتنبي كان يسطو على بعض الصور الشعرية الواردة في اشعار ابي تمام لقد اشار الى ذلك الكثيرون ممن نقدوا شعر المتنبي.

هذه خلاصة ماقيل عن هذا الشاعر جمعتها بعد ان رتبت ابوابها.

وارجو ان اكون قد وفقت الى ذلك

والله الموفق.

المصادر

١ ـ ديوان ابي تمام ـ شرح الصولي: تحقيق د. خلف رشيد نعمان موسسة الخليج للطباعة والنشر الكويت ١٩٨٢

٢ ـ ديوان ابي تمام ـ شرح الخطيب التبريزي دار المعارف، القاهرة

٣ ـ شرح ديوان الحماسة للتبريزي: القاهرة، مطبعة حجازي.

٤ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي. د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر القاهرة، طبعة سابقة ١٩٦٩.

٥ ـ الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري للامدي تحقيق السيد احمد صقر دار المعارف بمصر القاهرة طبعة ثانية ١٩٧٢

٦ ـ الشعر والنغم . د. رجاء عبيد، دار الثقافة للطباعة والنشر قاهرة ١٩٧٧.

٧ ـ ابن رشيق ونقد الشعر ـ دراسة تحليلية نقدية تاريخية د. عبد الرزاق مخلوف ١٩٧٣

٨ ـ الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، د. محمد حسين الاعرجي منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية. دار الحرية للطباعة ١٩٧٨

٩ ـ التكسب بالشعر . د. جلال الخياط دار الاداب. بيروت ١٩٧٠

١٠ ـ الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام. د. محمود الربداوي دار الفكر للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧.

١١ ـ دراسات بلاغية ونقدية د. احمد مطلوب منشورات وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٠.

رقـم الايـداع في المكـتـبـة الوطنـيـة
ببغداد (٧٨٢) لسنة ١٩٨٨

الدار العربية للطباعة



صدر حديثاً

- شرح المعلقات السبع
- النابغه الذبياني
- حسان بن ثابت
- المتنبـي
- أمرىء القيس
- أبو العلا المعري
- أبو الطيب المتنبي حياته وشعره
- مجموعة جبران خليل جبران
- مجموعة مصطفى لطفي المنفلوطي
- حكم المتنبي الباهرة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٧٨٢ لسنة ١٩٨٨

مكتبة النهضة



بغداد ـ شارع المتنبي

هاتف ٤١٦٣٦٨٩

السعر: دينار

طبع الدار العربية بغداد